

القبور

غرة شوال سنة ١٣٢٤

صـور المـشارقة والمغاربة

بـقوت الحـوي

٥٥٤ - ٦٢٦ هـ

لا يستقر بارض أو يسير الى أخرى كـتخصن قـريب عزمه نائي
يوماً مجزوى ويوماً بالعقيق ويوماً بالعزيب ويوماً بالخليصاء
ونارة ينتهي نجداً وآونة شعب الحزرون وحيناً قصر تيماء

هذا ما استشهد به بقوت على تنقله في الرباع والباق وما كان تنقله سوى
تنقل عاقل يرحل في اقتناص شوارد العلم ولقاء الرجال واستنفاض البلاد فهو أشبه
بالم غربي لهذا العهد يقطع المسافر ويركب البعير ويجوب القفار منتقلاً من قارة
الى قارة يدرس ويشاهد ويعتبر . ولكن شتان بين عالم اليوم وعالم امس . فالاول
يقطع البحار والكهرباء والثاني يركب الخيل والبغال والجمال . الاول يضرب في
مناكب الارض ووراءه دولة تحميه وامة يعتز بها وجمعيات تنفق عليه وناس
يقدرون عمله قدره والثاني يخذله سلطاناه وتسله اُمته يعيش بكده ويعتمد في كل

شأن علي إرادته . وغايته من دنياه في عمله الشاق ان يخلص مما تنتج قر يحنه رأساً
برأس غير متوقع خيراً من مستحسن ولا شراً من مستهجن . وبهذا ساغ لنا ان نقول
ان السائح العالم في القرون الوسطى اعظم من السائح العالم في القرون الحديثة وان
الناظر في التاريخ ليستعظم اكثر ما يائره من نير المعرفة للقدماء وقلما يستكثر ما يتم
على ايدي طبقات المحدثين فما وفق اليه الجغرافي الفرنسي الشهير اليزه ركلو مثلاً
في القرن التاسع عشر من التأليف والاجادة بعد صفاء الزمن وانتظام الحال لا
يستعظم كما يستعظم صنيع ياقوت الحموي الجغرافي العربي في القرون الوسطى .

نشأ ياقوت اسيراً ذليلاً أسر من الروم فقبل له الرومي وبيع في بغداد فاشتراه
تاجر يعرف بهسكر الحموي واليه نسب قبيل له ياقوت الحموي ولما صار ملكه جعله
في الكتاب ليتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط مناجره (تجارته) وكان مولاه اقرب
الى الأمية لا معرفة له بغير الكسب . وبوخذ مما قاله صاحب وفيات الاعيان ان
ياقوتاً قرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالاسفار في مناجره فكان يتردد الى
كيش وعمان وتلك النواحي ويعود الى الشام ثم جرت بينه وبين مولاه نبوة
اوجبت عنقه فأبعده عنه وذلك في سنة ست وتسعين وخمسمائة فاشتمل بالنسخ
بالاجرة وحصل بالمطالعة فوائد ثم ان مولاه الوى عليه واعطاه شيئاً وسفره الى كيش
ولما عاد كان مولاه قد مات فحصل شيئاً مما كان في يده واعطى اولاد مولاه وزوجته
ما ارضاهم به وبقيت يده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً
وبهذا سهل على ياقوت ان يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان
واستوطن مرو ثم دخل خوارزم وغيرها واتى من الشدائد والمصائب ما يلقاه في
العادة ارباب الافكار . منها انه ذا كرى يوماً احدثهم في بعض اسواق دمشق وذكر
له رأيه في امير المؤمنين علي بن ابي طالب وكان منحرفاً عنه بما علق في ذهنه من

مطالعة كتب الخوارج فنار الناس عليه وكادوا يقتلونه وبلغ امره الوالي فطلبه فلم
ير بدأ من الفرار ولسان حاله ينشد قول الوزير ابن زيدون وقد فر من قرطبة
فمرت فان قالوا الفرار اراه فقد فر موسى حين هم به القبط

غادر دمشق سنة ٦١٣ كما غادر خوارزم يوم اتاها التتر لا سيد له ولا ابد
متخياً عن كل ما ملكت يمينه . خرج من بلد ذكر فيه رأيه وربما كان ايراده له
بالاعتدال لان لم نر ما قاله هو او بعض النصفين في هذه الكائنة . فاعجب لامة
يلعن على منبرها الخليفة الرابع نحو الف شهر من دون حرج ولا تكبر ويحي بعد
قرون من يذكره بالادب من الوجهة التاريخية في تلك العاصمة نفسها فنقوم عليه
القيامة فما اسرع تبدل الاخلاق والاحوال في القرون والاجيال . من النصب الى
الشيع ومنه الى غيره من المنازع والتحلل

كان الادب والتاريخ وتقوم البلدان او الجغرافيا في العلوم الغالبة على باقوت
وفي الجغرافيا برز وبذ لانها تتوقف على كثرة الاطلاع والرحلة وهما كانا ديدنه
ودينه وما آله من الكتب هو من ارقى ما جادت به القرائح في عصره وبعده وان
جاء عرضاً في بعضها ما يمدد علماء العصر من قبيل الخرافات مثلاً فانه كان من
لوازم عصره . والعلم والمعتقدات في عهدنا لا تشبه العلم والمعتقدات في عهده . على
ان ما صنفه لا يزال الى اليوم معتمداً ومعدوداً من الامهات الطيبات وكتابه الذي
اشتهر به له عهدنا خصوصاً «معجم البلدان» كما ان له كتاب معجم الشعراء ومعجم
الادباء - وهذا يطبع الآن في مصر كما طبع معجم البلدان فيها ثانية - وله كتاب
المشرك وضماً والمختلف صقماً وكتاب المبدأ والمآل في التاريخ وارشاد الالباء الى
معرفة الادباء وكتاب الدول ومجموع كلام ابي علي الفارسي وعنوان كتاب الاغاني
والمقنضب في النسب واخبار النبي وغيره

هذا هو الرجل الذي رباه عامي^٣ من عامة التجار فبلغ بحدة ذهنه وتوفره على
 الدرس مبالغ الاعاظم الكبار وكانت حياته حياة جهد وعمل لاتي من الدهر الألاتي
 واضطهده قومه وحسده معاصروه إلا انه عرف قدره في علمه على ما كان هناك
 من الصعوبة في معرفة الرجل في تلك القرون في حياته . قال ابن خلكان وكان
 الناس عقيب موته يشنون عليه ويذكرون فضله وادبه . وياقوت الرومي في ولوعه
 بالعلم والرحلة كما عصره ابن سعيد المغربي ذلك كان في الشرق وهذا في الغرب
 فحيا الله زماناً ينبغ فيه أمثالها



العلم الصحيح

نشرتها بجزيرة الظاهر اولاً

قالوا العلم علمان علم الابدان وعلم الاديان او دنيوي وديني فالديني علم ما
 فيه صلاح المعاش وحفظ النظام في عالم الكون والفساد والديني كل ماله مساس
 بالمعاد وتهذيب النفس والابتعاد عن المنكرات في هذه الغاية للظفر بالباقيات
 الصالحات في تلك الدار الباقية

كان العلم الديني لاول امره موجزاً مندعجاً لم يتعد قواعد مقررة واصولاً نافعة
 فكان العربي يقصد الرسول عليه السلام يعلمه الدين في ساعة ثم يحمله على القرآن
 ويقول له اذهب راشداً وبشر عشيرتك واهلك فقد عرفت من الدين جوهره
 وسره وما ينبغي له . فمن ثم دام الاسلام الى السذاجة حتى قامت قائمة العصبية من
 اجل التنازع على الملك وتجادب حيل السلطة فمزج الدين بالسياسة ودخل في
 الاسلام من لا يهيمه منه غير المقائم وراح بعضهم يدسون ما لم يقل فيما قبل وكثر
 المناقرون ممن سعوا بالدين في سرهم وهم من اتباعه في جهرم وانشأوا يلبسون ثياب
 الاصدقاء وهم له اعداء ماكرون